البـــابُ الأولُ

الأصالة فى شعر الطبيعة

ونقصد بالأصالة : صدور الشاعر عن حسه بلا تقليد ، وتعبيره عن ملاحظته ، ووصفه لعالمه ودنياه ، وتجليته لما يستثيره من موضوع فيما يروقه من بيان .

وإذا استثنينا تلك الأبيات القليلة التى تفرقت فى كتب الأدب ، وأشرنا إليها من قبل ، فليس هناك شعر مذكور فى الطبيعة لمن تقدم امرأ القيس والمهلهل ومعاصريهما : علقمة وعبيداً ، وإن اختلف فى هذه المعاصرة . وقد قال امرؤ القيس :

عُوجا على الطلل المُحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خِذام

لكنا لا نعرف شيئاً عن ابن خذام أو حذام أو حمام ، على اختلاف الروايات فى اسمه ، ولا عن بكائه ، ولهذا لا نستطيع التقدير له فى موضوعنا . وليس هذا الوضع جديداً ، فقد عد القدماء امرأ القيس أبا الشعر العربى وأميره ، وأول من حفر عينه وقصد قصيدة ، ونسبوا إليه كثيراً من الأوليات والسنن التى اتبعها الشعراء من بعده ، وربطوا بين اسمه واسم المهلهل دائماً ، وجمعوهما فى مجال واحد ، كما تحدثوا عن علقمة وعبيد وصلتهما به .

على أن هناك شعراً آخر ، هو شعر الصعاليك ، امتاز بطابع خاص قوامه مصادقة الوحش ، والضرب فى البيداء ، والنفور من بنى الإنسان . وشاعرا هذا الفن : الشَّنْفَرَى وتَأَبَّطَ شرًّا ، وجدا فى أوائل القرن السادس مع امرئ القيس أو قريباً منه ، ولم يكن لنزعتهما نظير عنده ولا عند معاصريه ، فحق أن نعتبر هذه النزعة فى شعر الطبيعة الأصيل .

ولما كان لشعر كل من امرئ القيس ومعاصريه والصعاليك مقومات ، ترجع مع البيئة إلى حياة الشاعر الخاصة ومميزاته ، فقد رأيت سيراً مع نهجنا أن أفصل الحديث فى هذه الأشعار ، وأن آخذ بالإحاطة فيها ، وبخاصة فى شعر امرئ القيس لأثره الكبير فى تاريخ الشعر العربى .

الفصل الأول

الطبيعة فى شعر امرئ القيس

١

صور امرؤ القيس فرسه فى مواضع عدة من شعره . وصفه فى المعلقة ، فأعطانا صورة سريعة . رسم الشكل العام له ، من الضخامة وملاسة الظهر والخاصرتين والساقين والذنب ، ولم يدخل فى الأجزاء الدقاق . أو بعبارة أخرى ، اكتفى برسم الخطوط الطويلة للصورة . وكانت مواد الرسم كثيرة متزاحمة فى ذهنه ؛ تشمل الظبى والنعامة والذئب والثعلب ودوارة الصبى والصخر والمطر والجبل والحرارة والمرجل والفارس والغلام والشاب والشيخ والبنات الأبكار والأصنام والدم والحناء ، وغير ذلك من الصور الخفية فى نفسه والأحساس المستكنة .

تناول هذه المواد الكثيرة وصبها على عجل ، واستخلص منها قوالب صغيرة جذابة ، مستعيناً بالتشبيهات على إعطاء الكلمات معانى الحيز والمسافة واللون ، وعلى إحياء الصورة الكلامية .

ففى مقام التمثيل للسرعة اصطنع العجلة فى فنه من ناحيتى التصميم والألوان ، وبعث فى العبارة معانى الحركة والنشاط بحسن استخدام الألفاظ فقال : «مكر مفر مقبل مدبر معاً» ، مصوراً لمعانى الحركات جميعاً فى تقابل يزيدها قوة ، وشبهه بجلمود صخر حطه السيل ، وبخذروف الوليد ، ومثل النشاط بغلى المرجل وإرخاء السرحان وتقريب التتفل . وذكر أن الغلام الخف يطير عنه ، ووصفه بالخفة والانجراد والضمور .

وتعلقه بالفرس شديد ؛ يستيقظ له فى الصباح الباكر ، ويظل طول النهار فى شغل به ، فإذا كان المساء بات يمعن النظر فيه إعجاباً ؛ يريد أن يمثل محاسنه فى نفسه جملة . ولكن هذه المحاسن ، لمعانيها الكبيرة فى فكره ، لا تيسر له هذا الغرض ، فتبقى عينه زائغة بين أعلاه وأسفله .

وليس الفرس وحده موضع فتنته ، بل بنات الطبيعة جميعاً . فهو مفتون كذلك بسرب البقر الوحشى ، يرسم له صورة بارعة ، ويشبهه بالنساء الأبكار فى مقام العبادة ، ويشعر السامع بالحدب عليه ، ويمثل تفرقه تمثيلاً جميلاً . وهو صادق فى تمثيل نفس الشاعر الصبى ؛ يشبه بالدوارة ، ويتحدث عن الغلام الخف فوق ظهر الفرس .

وامرؤ القيس قد تأثر بمناظر الطبيعة ، وساعده فنه كذلك على بلوغ التأثير فى نفس السامع أو القارئ ، حتى ليشاركه إحساسه ، ويؤمن معه بأن هذا الفرس جدير بالإعجاب . وخياله واقعى ؛ لا يغرب ولا يحيل ، وإنما يتناول المنظر المألوف ، فيجليه فى ثوب قشيب تبدو فيه الألوان العادية زاهية طريفة ، تستوقف النظر فى الصورة بعد أن لم تكن تستوقفه فى الوجود الخارجى . وكان فى هذا ممتازاً ؛ يثير فى نفسه الموضوع مشاهد لا يثيرها فى نفس غيره ، ثم يصوره كما امتثلته نفسه فيبدو طريفاً ، ويمتاز فى التصوير كما امتاز فى الشعور .

فقوام الصورة الحب للطبيعة ، فنها المواد والألوان ، والصدق فلا مبالغة ولا إحالة ، والبساطة فلا تكلف ولا تصنع فى الألفاظ والمعانى ، والإيجاز فلا حشو ولا فضول ، والدقة فلا كلمة نابية ولا أخيلة غير مطابقة ، وإنما جو محكم يسود الوصف كله .

وإذا أحسسنا فى هذه الصورة بأنها غير مرتبة الأقسام ، وبأن بعض أجزائها يقتضى التقديم أو التأخير ، فمنشأ هذا الرواة ، وعقلية الشاعر الجاهلى التى لم يكمل حظها من النظام .

لكن له صورة ثانية أشد ترتيباً وأوفر تنسيقاً فى الوصف الذى بدأه بقوله :

وأركبُ فى الرّوع خَيْفانةً كسا وجهها سعفٌ مُنتشر

فنى هذا الوصف نرى الترتيب محكماً كل الإحكام ؛ اختار للمطلع الوجه ، وهو أول مايطالع الناظر من الفرس ؛ ثم تتبع الأجزاء فى ترتيب من الحافر إلى الجبهة . وبعد هذا عرضها من جميع الجهات . وانتهى من وصف الخلق إلى وصف الخلق ، وكان بارعاً فى الحالين .

ويعلو فيتحدث عن الجرادة والعقاب والنخلة المتأججة . والسحاب . وتتوفر له مقومات الصورة السابقة توفراً أقوى وأتم ؛ فالطبيعة أجمل وأشد بريقاً فيها ماء وخضرة ونور ونار ، والحب أصدق . والبساطة أعظم ، والروعة أكمل ، والفتنة أعمق .

ويعطى صورة مفصلة الأجزاء من الشعر والحافر والرسغ والعرقوب والكفل والذنب والعنق والجبهة والمنخر والعين ، ثم يرسم لها صورة عامة من جميع الجهات ، فى إقبالها وإدبارها واستعراضها رسماً موجزاً بليغاً ، يرتفع فيه بالموصوف تدريجاً حتى يبلغ السماء فرة بين الماء

والخضرة والظل ومرة فوق الجبال ومرة بين الطير . وإن هذا الصنيع ليشبه الفن الحديث ؛ إذ تعرض الأجزاء أولاً ، ثم تعرض الصورة العامة فى أوضاعها المختلفة .

وهذا اللون الفنى مطابق للحال كل المطابقة ؛ فالدقة والعرض والمفصل المرتب ، والتحليق فى أجواء عالية جدير برجل يهيئ نفسه للحرب . والمحارب يتفقد أدواته قبل النزال ويختبرها فى دقة ، ويقنع نفسه بمتانتها ، وبالنصر من طريقها ، وهذا ماصنع امرؤ القيس بالفرس ، أشد أدوات النزال وأقواها عنده ، فى مقام الاستعداد للحرب .

وفى قطعة ثالثة [1] يدور الوصف حول معنى واحد ؛ هو كرم الفرس الذى يعطى للجمال حقه ، للراكب حقه ، وللصائد حقه ، ويشترك مع الوصفين السابقين فى كثير من المعانى والمقومات . لكنه يمتاز بالإيغال فى التفصيل للأجزاء المشبهة والمرئيات المشبه بها . ويشعر المتأمل فى وصفه لبقر الوحش بمعنى الحب والفتنة شعوراً أقوى منه فى الوصفين السابقين . فهى عذارى التحفت بالبياض تأوى إلى خميلة . ولما نشبت المعركة كانت الثيران تغمغم كالأبطال فى الحروب ، ثم غلب القدر بعضها فانكب على وجهه ، وساعد البعض الآخر فنجا متقياً الطعن بقرنه . وفرسه كذلك أشد إعزازاً ؛ أعرافها مناديل ، ونحرها مخضب بالحناء كأنها عروس مجلوة ، والنظر إلى أجزائها بما فيها الذيل جميل ، وحركاتها حبيبة كلها .

وفى قطعة رابعة [2] ترى أبرز معانيه القوة والسلامة والصلابة . وقد أحكم الشاعر فيها جو الوصف بما انتقى من المعانى والألفاظ انتقاء محكماً . فتراه يذكر العروق والأعصاب والحوافر والخشب والصلابة والاكتناز . وفى سبيل إحكام هذا الجو يقسو على فرسه حتى يشعرك بالبغض لهذا الحيوان العاتى الذى يفرق البقر الوديع تفريق الذئب للغنم ، ويشبهه بعقاب تتخطف الأرانب الضعيفة بعد أن اختفت من وجهها الثعالب الماكرة . ثم يقول إن منظر البقر كان مثيراً حين حاول اتقاء عدوان الفرس بالثور الضخم ، وإن الفرس فرق شمله على كره وأسى منه .

وأهم مميزات هذا الوصف بروز شخصيات الحيوان ؛ فالفرس الذى يهاجم لا الفارس ، والأبقار والثيران تدفعه . وبلغ من خفوت شخصية الفارس أن يأسى حين تفرق الفرس الأبقار ، كأنما هو متفرج لا يعنيه من الأمر شىء .

وهذه مرتبة من الفناء فى الحيوان بليغة ، تبلغ حد سلطانه على الإنسان وتوجيه الأمر دونه .

---

(١) راجع قصيدته : خليلى مرابى على أم جندب ... لنقضى لبانات الفؤاد المعذب

(٢) راجع قصيدته : ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى ! ... وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وقد استهل هذا الوصف ببيتين عظيمي الدلالة فى معنى ركوب الفرس عند امرئ القيس [١] ، فقال : كأننى لم أركب الجواد للذة ، ولم أتبطّن الكواعب الحسان ، ولم أكرم صحابى بالخمر الروية ، ولم أخض المعارك . وقد عاب عليه بعض النقاد أن لم يذكر الجواد والكر فى بيت والخمر والنساء فى بيت ، وفاتهم ما يريده من أن له فى الخيل جمالا ومتاعاً كجمال النساء والمتاع بهن ، وأنه لم يركبها للصيد والفروسية وحدهما . ولعل هذا المعنى كان قسمة بين العرب بقدر ، ولعل القرآن عبر عنه بقوله فى الأنعام : (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُون) .

وفى قطعة خامسة [٢] يشمل حديثه عن الفرس صورتين منفصلتين له . فى الصورة الأولى يستحق الفرس الإشفاق والرعاية ، والشاعر منه كالأم الرؤوم من ابنها أو الطائر المهيض من جناحه الكسير . هو بأعلى الجبل معلق القلب بالفرس أدناه ، وحين نزل إليه وركبه خفف من حدة جريه مُضِيًّا فى معنى الإشفاق والحدب . أما الصورة الثانية فالفرس فيها قوى فاتك ؛ يروع الثيران الوحشية الضخمة والبقر الأبيض الجميل ، وليس فى ألفاظها ولا فى معانيها جديد .

وفى قطعة سادسة [٣] يصف الفرس فى حالين كذلك وصفاً يشبه سابقه فى عدم جدة المعانى ، اللهم إلا شدة عقد الأرساغ ولين المفاصل . فى الحال الأولى يصف بأسه فى الحرب . وفى الثانية يصفه بين الطبيعة الجميلة يمتع بها النفس راكباً ؛ فيتحدث عن الغيث والمطر والأزهار ، ويتخذ مواد التشبيه من هذا الجو العطر ، فيشبه تثنى ظهر الفرس بتثنى النبات أثناء الغيث .

وفى قطعة سابعة [٤] نشاهد الوصف فى جو الإرادة الماضية ، وتقوية العزم بالأمل المضيء فى ظلام اليأس ، فيبدأه بالغاية الحبيبة إلى نفسه وإلى نفس رفيقه فى الرحلة إلى قيصر ، وهى بلوغ الملك . ويذكر فى مقام الإرادة الأسد ، والذئب ، والإرغاء ، والقطع ، والصلابة ، وفى

---

(١) كأنى لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل ... لخليلى : كرى كرة بعد إجفال

(٢) راجع قصيدته : أغنى على برق أراه ومبض ... يضيء حبياً فى شماريخ بيض

(٣) راجع قصيدته : لمن طلل أبصرته فشجانى ... كخط الزبور فى العسيب اليمانى ؟ !

(٤) راجع قصيدته : سمالك شوقى بعد ما كان أقصرا ... وحلت سليمى بطن قو فعرعرى

مقام التشجيع الفرس لا ينى رغم الجهد بل يبالغ إمعاناً فى السرعة ، ويتبختر رافعاً رأسه . وأغلب الظن أن هذا الجو القوى قد أسبغ على رفيقه روح القوة ، وصرف عنه الهواجس ، وأبعد عوامل التردد والهزيمة ، فبلغ الشاعر به ما يريد .

وفى وصف ثامن [1] نرى بطشاً وتأهباً للحرب ، وذكراً للعدو والوثب والجموح والمعمعة والنار ، ومدحاً للفرس ؛ تسرع لتلقى العدو ، وتتأنى ليسدد الفارس الرمى . فجوه ملتهب مستطير ، يطابق الحال وهو طلب الثأر لأبيه .

* * *

ولعل هذا كله يبين فى وضوح وجلاء أن امرأ القيس وصف فرسه وصفاً فنيًّا رائعاً فى أحوال كثيرة ، وأنه اختار الألوان الملائمة للأجواء المختلفة أدق اختيار ، ومثل ما قصد أروع تمثيل ، فكان الوصف شاعريًّا بديعاً يمثل الفتنة بالطبيعة تمثيلاً مستفيضاً حُق له الصدارة فى شعر الطبيعة عنده .

٢

وظفرت الناقة بعناية امرئ القيس كذلك وكيف للبدوى ألا يعنى بناقته ! وقد وصفها عدة أوصاف . وصفها فى قصيدته :

خليلىّ مُرَّا بى على أم جندُبِ لنقض لُبانات الفؤاد المعذب

فشبهها فى القوة بحمار الوحش الذى لم تبيض سوى خاصرتيه ؛ يرفع صوته بالأسحار كأنما يطرب نفسه حين يرعى ، وهو أعظم ما يكون نشاطاً فى الربيع ، منحنى الوادى وأخصب بقاعه . فكانت ناقته فى هذا الوصف طروباً ، موفورة النعمة ، تعيش فى رغد ولا تشكو جوعاً ولا كلالا .

وفى القصيدة التى مطلعها :

غَشِيتُ ديار الحى بالبَكَرَات فعارمةٍ فبُرقةِ العِيَرات

يصف الناقة مشبهاً بحمار الوحش وأتنه ، فيقول : إن الناقة التى أركبها ، ومعى تابعى وقراب

---

(١) راجع قصيدته : تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلى ولم ترقد

سيني والطنفسة ، تشبه فى نشاطها وقوتها حمار الوحش مع أتنه السمينة كنياق الأجير المقل يعنى بها . وهذا الحمار شديد السلطان على أتنه ، ماضى الأمر فيها مضاء حد الزج ، ويغار عليها غيرة الزوج على الضرائر . وهى تأكل نباتاً غضًّا نديًّا وتستعذب الماء البادر فى الصباح لسمنها ، وقد اعتصمت بأرض بعيدة خشية الصائد الفاتك ، عمرو بن الشيخ ، تسحق الحصى بحوافرها الحادة سحقاً ، وتشبه أعالى أذنابها بألوانها الزاهية ، حمائل السيوف المتقوسة . ورب ناقة كألواح سرير الموتى زجرتها فسارت مبعدة على طريق مستبين استبانة خطوط الثوب ، ثم تركتها هزيلة ، لكنها لا تزال قوية على السير .

ويبدو فى هذا الوصف أنه مؤلف من ثلاثة أقسام يكاد كل منها يكون مستقلا عن الآخرين . فهو أولا يتحدث عن الناقة حديثاً مقتضباً لا يعدو أن يكون تمهيداً للقسم الثانى ، وهو وصف حمار الوحش مع أتنه وصفاً طويلاً بعيد الصلة بالأول .

وفى وصفه لحمار الوحش يبدو التصور الإنسانى وتمام إلف الشاعر له . فهو يحدب على أتنه ، ويغار عليها غيرة الرجل على نسائه ، وينجيها من مظان التهلكة . وجو الوصف غض مزهر ، فيه نبات ندى وماء عذب ونقوش وألوان زاهية . وإذا انتقل إلى القسم الثالث ، وهو وصف الناقة ، تغير الجو فصورها هزيلة متداعية . ولتوضيح معنى الهزال استعار معانى الفناء من ألواح سرير الموتى ، ومعانى التفرقة من الخطوط المتميزة فى الثوب .

فهل قصد بهذين الوصفين إلى تصوير الناقة فى دورى الفتوة والشيخوخة ؟ علم ذلك عند الشاعر !

وفى قصيدته :

دع عنك نهباً صيح فى حجراته ولكن حديثاً ما حديثُ الرواحل

يتحدث عن إبله حديثاً كسابقه ؛ تسوده روح الطمأنينة والرغد والمنعة .

وفى القصيدة التى مطلعها :

أماوىَّ هل لى عندكم من مُعَرَّس أم الصَّرمَ تختارين بالوصلِ نيأس !

يتخذ الناقة ذريعة للحديث عن ثور الوحش ، فيصفه بأنه قوى أبلغ القوة ، عظيم كل العظم كناقة الشاعر ، لا يخاف ولا يهن . تحدق به الأخطار من كل جانب ، وتشتد عليه شدة الكلاب الجائعة النهمة ، ولكنه لا يحفل بكل ذلك . بل إن هذه الشدة المتناهية ليست

بالقياس إليه إلا عبث صبيان ، وهذه الكوارث لا تلبث أن تنهزم أمامه ، وأن يبقى هو على حاله من القوة ورباطة الجأش .

وفى قصيدته :

لمن الديار غشيتها بسحام فَعَمَايَتين فهضب ذى أقدام

يصف الناقة فيقول : كأن ناقتى السريعة المجدة نعامة تسير فى طريق ملتهب . وهى طويلة العنق ، عالية الرأس ، ذكية القلب سريعة على ما بها من مشقة وتعلل . أسرعت لتصرعنى فقلت لها : أقلعى فحرام عليك صرعى . ثم دعا لها بالخير جزاء السرعة والصبر ، وما وصلت بين موضعين متباعدين فصارا كموضع واحد .

وهو هنا يمثل السرعة تمثيلا حيًّا فى البدن وفى القلب ، بل تغلب قوة القلب المرض فتسرع بها كالنعامة تسرع فى الرمضاء هرباً من القيظ . وكان حديثه معها حديث الصديق ينصحها فى رفق إن شطت ، ويشكرها إذا أحسنت .

وفى قصيدته التى مطلعها :

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا وحلت سليمى بطن قوّ فعرعرى

يصفها بأنها سريعة السير حين يفتر سواها ، وقت اشتداد الحر ، تقطع السهل إذ تكتسى الأرض من السراب بمثل الثياب البيضاء . وهى بعيدة ما بين المنكبين ، واسعة القوائم ، تثب وتسرع كأن هرًّا قد ربط فى ضفرها ، تكسر الحصى بمناسمها لشدة سيرها ، ولا يقوى الحصى على إزالة شعرها ، فيطير عن يمينها وعن شمالها ، ويحدث صوتاً كصليل الزيوف فى يد النقاد ، كأنما هى أعسر يرمى بيديه معاً .

وجو الوصف محكم كل الإحكام ، فقد استخدم الشاعر كل عوامل السرعة وموضحاتها ؛ من النعامة تجرى فى الهاجرة ، وربط الهر فى العنق ، والرمى باليدين وتطاير الحصى ، فمثل بهذا السرعة أدق تمثيل ، واستخدم الفعل المضارع تحقيقاً للاستحضار .

لكنه فى الواقع حين وصف سرعة الناقة ، لم يصف سوى بعض مناظر الصحراء وما يكسوها فى الظهيرة من سراب كالثياب المنشورة ، وما ينتثر أمام الناقة من حصى .

وقد يجمع بين وصف الناقة والفرس والقفر والزرع فى أبيات قليلة كما فى قصيدته :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعِرفان ورسمٍ عَفَتْ آياتُهُ منذ أزمان

فقد وصف كل ما سبق مسرعاً فى تسعة أبيات ، فقال : وكم بلد وحش وقفر نازح

قطعت فضاءه البعيد على ناقة صلبة اللحم ، سهلة السير ، مطاوعة . ورب كلأ قد تفتح زهره ونما نبته ، يتداوله السحاب والغيث ، نزلت فيه على فرس نشيط سخى الجرى كأنه فحل الظبي وقعت عليه العقاب ففر هائماً على وجهه ! ورب واد قفر قطعته على فرس عال جميل ضامر ! ورب جيش كثير العدد والعدة ، كواد مشتبك الشجر ، قدته إلى ديار العدو البعيد حتى نفق الفرس الضخم ، فحطت عليه النسور والعقبان تنهش لحمه ! .

ويلاحظ أنه قد عرض هنا صوراً موجزة لحالات متناقضة ؛ فمن بلد وحش ، إلى واد مزهر ، إلى قفر فسيح ، إلى ديار نائية ؛ ومن ناقة صلبة . إلى فرس نشيط ، إلى آخر طويل ، إلى ثالث ضخم . لكنه يستخدم فى كل حالٍ الألفاظ والأخيلة الملائمة استخداماً بارعاً .

وفى القصيدة التى مطلعها :

أمِنْ ذِكْرِ سلمى أن نَأَتْكَ تنوص فتقصر عنها خُطوة وتَبُوص

عرض صوراً مختلفة للصحراء الجدب البعيدة الآفاق ؛ وللناقة الوسط السريعة الخفيفة القوية العظام الغزيرة اللبن ، وللظليم الطويل يحفظ هو وزوجه بيضاً مرصوصاً فى الرمل ؛ ولحمار وحشى ضامر مشدود البطن إلى الظهر ، كأن ظهره بما فى وسطه من خطة تخالف سائر لونه ، جعاب السهام يجرى بينها ذهب ، بحاجبه خدش ، وبصدره آثار عض ، تأكل أتنه نباتاً غضًّا ، ويتناثر منها شعر كالطيلسان الأخضر ، ظل يرعاها فى الصيف حتى نفد النبت ، كما ظلت فى الربيع ترعى الكلأ الغض محاولة الاكتفاء به عن الشرب ، لكنه لم يجزئ صغارها فصاحت تطلب الماء ، فأوردها الحمارُ آخرَ الليل ماءً وسط أرض خضراء ندية ، فظلت تشرب على حذر ويجانبها صغارها ، والحمار من حولها بادى التواجذ ، شديد الأسر كالأسد .

وجو الوصف مرح جاء فى أعقاب أحاديث الحب والغرام ، فبدا مشرقاً جميلاً فيه البيض المكنون ، والذهب ، والنبات الغض ، والماء ، والطيلسان الأخضر ، وحياة الأسرة السعيدة يرعى فيها سيد البيت القوى نساءه وأولاده الصغار ، فيأمنون فى كنفه ، وينالون من الحياة مايبتغون . ويظهر فى هذا الوصف القصد إلى تصوير حمار الوحش فى دقة واستيعاب .

٣

وقد وصف الشاعر ثور الوحش ، وحمار الوحش وأتنه ، والظليم والنعامة ، وكلب الصيد أثناء وصفه للفرس والناقة كما مر .

ووصف كلب الصيد كذلك مع الفرس فى قصيدته التى مطلعها :

أحاربن عمرو كأنى خَمِرْ ويغْدو على المرء ما يَأْتَمِرْ

فقال : وقد أغتدى ومعى صائدان ، أقام كل منهما بمكان مرتفع يرقب الوحش ، ومن ورائنا كلب مولع بالصيد ، مدرب ، مرهف السمع ، بعيد البصر ، بشع ، ملتصق الأسنان ، مشرف الضلوع ، « تبوع طلوب نشيط أشِر » ، فأنشب أظفاره فى نسا الثور ، فصحتُ به : ألا تثور لحالك ؟ فكرَّ الثور على الكلب بقرنه ، فأدخله فى جوفه ، فظل الكلب يترنح بين الشجر الملتف ترنح الحمار النَّعِر[1] .

ويبدو من جملة وصفه أنه كان يستملح ثور الوحش ، فجمله وأحبه ووصفه فى فتنة وعطف ، كما وصف غيره من حيوان الصحراء .

ويؤيد هذا القطعةُ التى مطلعها :

رُبَّ رامٍ من بنى ثُعَل مُتْلج كفيَّه فى قُتَره

إذ يتحدث عن صياد ماهر يصيد الوحش مخاتلاً ، وقت ورودها الماء آمنة ، بسهام نارية تتلظى ؛ ثم يدعو عليه بالموت إذ لا يخطئ الرمية ، ويعيش على الصيد رغم تقدم سنه .

ويلمس القارئ فى هذه القطعة معنى الحقد على هذا الرامى الذى يفتك بالحيوان الآمن ، واحتقار الشاعر لمهنة الصيد ، وحنوه على هذه الحمر الجميلة التى يجد فى ورودها الماء وانصرافها عنه متاعاً وجمالاً .

وفى قطعة من أربعة أبيات أولها :

ألا إلاَّ تكن إبل فمعْزى كأن قرونَ جِلَّتها العصِىُّ

وصف المعْزى فى فتور بأن قرون كبارها كالعصى ، أتى الربيع والخريف بالمطر ، فأخصبت الأرض وسمنت المعْزى ، إذا مسحت حوالبها لتدر اللبن صاحت فأصبح القوم وكأنما هم فى مأتم ، لكنها توسع أهلها جبناً وسمناً ، وكفى من الغنى الشبع والرى ! .

ويظهر فى هذا الوصف عامل البرم بالحال ، والضيق بهذه المعزى ، ومحاولة التعزى . فتراه يتحدث مشبهاً القرون بالعصى ، بما فيها من معنى الضرب والألم ، ويذكر أن الخير يأتى منها بين العويل والصياح ، ويقرر هذا المعنى حين يمثل بالنعى .

---

(١) النعرة : ذبابة خضراء ، تدخل أنف الحمار فيزوى ويستدير .

أمَّا عناصر التعزى فتمثل فى الربيع والخريف والمطر والخصب والأقط والسمن والشبع والرى والقناعة .

* * *

هذه هى الطبيعة الحية فى شعر امرئ القيس ، ويتبين مما سبق أن الشاعر لم يصف الناقة كما وصف الفرس ، وإنما ألم ببعض أحوالها فى إيجاز ، واتخذ من حديثها ذريعة إلى وصف حيوان الصحراء من حمار وثور ونعامة وظليم ، كأنما الناقة ليس لها وجود مستقل ، وإنما أصبحت بحكم البيئة والملازمة موجوداً من موجودات الصحراء أو رمزاً لموجودات الصحراء ؛ يثير ذكرها حديث الموجودات الأخرى التى يعنى الشعراء بأوصافها .

وحين يصف الناقة يكون الوصف فى معرض الحديث عن الحب الضائع أو الهم أو رحيل الحبيب ، مسليا الهم على حد تعبيره .

أما الفرس فإنه يركبه فى مرح مبكراً . وقد بدأ وصفه فى أربعة مواضع بقوله : « وقد أغتدى والطير فى وكناتها أو وكراتها » . وقد يكون هذا التبكير من ملائمات الصيد وأسباب نجاحه ، لكنه على كل حال لم يذكر الفرس إلا فى أحوال السرور والمدح والعز والاستعلاء . وكانت فتنته به واضحة أفصح عنها كما سبق ، ودل عليها باستقصاء الوصف والتفنن فيه .

٤

(١) أما الطبيعة الصامتة فقد وصف منها الليل فى المعلقة ، فقال : رب ليل كثيف كموج البحر ، مد ستوره علىّ بأنواع الهموم ليختبرنى أأصبر أم أجزع ، فقلت له إذ طال أوله ووسطه وآخره ؛ كالجمل نأى صدره وتمدد صلبه وبعدت مآخيره : انكشف عن الصبح ! ولكن ، ما الجدوى ، والصبح ليس بأفضل منك ، فهمومى دائمة ليل نهار؟ ! ويا عجبا لك من ليل ثقيل لا يتزحزح كأن نجومه شدت بحبال متينة إلى جبل ، وكأن ثرياه فى موقفها الثابت شدت بحبال كتانية إلى صخور صماء ! .

وفى هذا الوصف يبدو واضحاً أن الشاعر يفلسف الطبيعة ، ويصورها على غراره ويسكب فيها فكره . وفى إيضاح هذه الفلسفة استخدم وسائل الفن البيانى أدق استخدام فبدا الهم مجسماً فى الألفاظ والمعانى ! .

(ب) ووصف البرق وأتبعه بالغيث فى ثلاثة مواضع. وصف البرق والغيث فى المعلقة، فقال: هل ترى يا صاحبى برقاً يلمع بين السحاب المتراكم كلمع اليدين تتحركان فى سرعة، أو كمصباح راهب أمال الزيت على فتيلته، فغذاها وزاد فى ضوئها؟ لقد قعدت لذلك البرق أرقب من أين يجىء بالمطر، ويا بعد ما رأيت! شمل جهات مترامية؛ فكان يمينه، فى تقديرى، على جبل قَطَن، ويساره على جبلى السِّتار ويَذبُل، ثم أضحى يسح الماء حول كتَيفَة، ويقلب سيله الأشجار رأساً على عقب، ومرَّ على جبل الفَنَان برشاشه فأكره الوعول على النزول عنه. أما تيماء فقد أسقط نخلها كله ولم يبق من أبنيتها على غير القوى المشيد بالجنادل والصخور. وكان جبل تَبِير أول المطر، حين غطاه الماء والغثاء إلا رأسه، كشيخ ملتف فى كساء مخطط. وأطاف السحاب بذرى جبل المُخَيْمِر فدار سيله حولها بما احتمله من بقايا النبات والتراب كما تدور فلكة المغزل؛ ثم نزل بصحراء الغَبِيط، وألقى بها أثقاله، فأنبت نباتاً حسناً مختلف الزهر والألوان؛ فكأنه التاجر اليمانى نشر ثيابه الملونة أمام الناس. وقد أحال المطر هذا الوادى روضة من النبات والزهر والألوان، تغنى فيه الطير طربة سكرى، وأغرق السباع فطفت على الماء كأنابيش البصل البرى.

وفى هذا الوصف تبدو فتنة الشاعر بالغيث؛ فقد تتبع رحلته من بدايتها إلى نهايتها، وأحاط بجميع أحواله، وصور كلا منها. والغيث عنده عظيم كريم قوى، ينصر الضعفاء، ويداعب الأقوياء، ويبطش بالفاتكين، كأنه قوة العالم المدبرة. أضعف من شأن الجبال، وكر على الوحوش والسباع فأغرقها وجعلها تافهة، فإذا بلغ الصحراء الفقيرة الواطئة أغناها وجادها وجعلها فى طرب وحبور.

وتبدو فى جميع أجزاء الوصف الحياة؛ فالغيث تاجر رحالة حسن البضاعة، والجبل شيخ مزمل. وتملؤه الحركات العنيفة حيناً، وتشيع فيه البشاشة حيناً آخر.

أما الفن التنبيهى فممتاز؛ نبه السامع إلى الإمعان فى الصورة وتأملها معه حين نادى صاحبه، ثم زاد فتحدث عن قعوده مع أصحابه ينعمون فيه النظر، وعن مدى بعده ومظهره فى أدواره المختلفة، فبدت الصورة، بذكر ملابساتها وما أسبغ عليها من التشبيه والتجسيم، مشخصة ملونة أخاذة. وأحاطها كذلك بإطار يحدد مداها ومعالمها، ويتم لها به الوضوح والصقل الفنى.

وفى قصيدته التى مطلعها :

أعِنِّى على برقٍ أراهُ وميضِ يضىء حَبِيًّا فى شَمَارِيخَ بيضِ

وصف البرق والغيث وصفاً يبدو فيه الشاعر حزيناً ؛ يبدؤه بطلب العون ، ويتحدث عن تراكم السحاب ، وهدوء الضوء وخفوته بعد لمعانه ، والحيوان الكسير . وعنف المطر ، والقسوة على الرمال . وحين يتحدث عن غزارة المطر لا يذكر الزهر والطير كما صنع فى الوصف السابق . وأنى له ، وقد كان يبكى ويحمل الطبيعة وشعرها رسالة الشوق إلى أخته !

أما الفن فمقوماته واحدة فى الوصفين .

وفى القطعة التى مطلعها :

أحارِ ترى بريقاً هَبَّ وَهْناً كنارِ مَجُوس تستعر استعارا

وصف البرق والمطر فى جويشبه ما قبله ، ونفس مضطربة كذلك . ولهذا تحدث عن استعار النار ، والضجة ، والأرق ، والشدة من مظنة الطمأنينة ، والنوق العشار الوله ، والتحير ، والإبادة ، ولم يذكر الطرب والزهر .

(جـ) ووصف المطر فقال :

ديمةٌ هطلاء فيها وطف طَبَقُ الأرضِ تَحَرَّى وتَدُر
تخرج الوَدّ إذا ما أَشحذت وتُوارِيهِ إذا ما تشتكر
وترى الضَّبَّ خفيفاً ماهراً ثانياً بُرثُنَه ما يَنْعَفِر
وترى الشّجراء فى رَيِّقها كرءوس قطّعت فيها الخُمر
ساعةً ثم انتحاها وابلٌ ساقط الأكنافِ وَاهٍ مُنْهَمِر
رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبا ثم انتحى فيه شُؤْبوبُ جنوبٍ منفجر
ثجَّ حتى ضاق عن آذِيِّه عرضُ خيمٍ فخفاف فَيُسُر
قد غدا يحملنى فى أنفِه لاحِق الأَيْطَل محبوكٌ مُمَرّ

والشاعر فى هذه الصورة حى النفس ، موفور النشاط ، رائق البال ، فجاء وصفه على غراره . صفا خياله فتحدث عن أهداب الشعر فى تشبيه السحاب الكثيف ، وعن الماء الجارى ، وعن الضب الخفيف ، والسباح الماهر ، والصبا تستدر المطر . ولم يكن المطر على غزارته عاتياً ولا مدمراً ، بل رفيقاً يزين رءوس الشجر وتطلب الريح منه المزيد فيجيب . وكان الضب يسبح فرحاً . وكان فرح الشاعر أعظم فانطلق بفرسه يمتع البصر والقلب بالمنظر الجميل .

أما الفن فحكم . أكثر من استعمال الفعل المضارع ليتم له معنى الاستحضار ويستغنى عن التنبيه ، ورسم الصورة تامة الحدود واضحة المعالم . سحبه على قدر الأرض التى حددها بما أورد من مواضع ، والمطر يقرب من ارتفاع الأوتاد ومدى السباحة للضب ، وحاله بيِّنة من بدايته هيناً إلى نهايته غزيراً .

(د) وهناك فن آخر يعتبر من شعر الطبيعة فى الطليعة ؛ ذلك هو بكاء الديار والأطلال .

والديار هنا ، كما تبينت ، لا تعنى المنازل الخاصة ، وإنما تعنى الموطن أو البيئة . ولهذا نراه حين يبكى المنزل فى المعلقة يحدده بما بين الدَّخول فَحوْمَل فتُوضِحَ فالمِقْرَاة ، ويذكر دِمَنَهُ وسهوله .

ويحدده بمواقع أكثر فى قوله :

غشيت ديار الحى بالبَكَرات فَعارِمَة فُبرقة العِيرَات
فغُول فحلَّيت فأكْناف مَنْعِج إلى عاقل فالجُبِّ ذى الأَمرات

وهذا شأن سائر الشعراء الذين اتبعوا امرأ القيس فى بكاء الأطلال . وقد وسَّع زهير رقعة الدار من بعد حين قال :

ودار لها بالرَّقْمَتَيْن كأنها مراجع وشم فى نواشر مِعْصَم

فقد قالوا إن الرقمتين « إحداهما قرب المدينة ، والأخرى قرب البصرة ، وإنما صارت ها هنا حيث انتجعت [1] » .

وحدد غيرهما من الشعراء الديار بمواضع عدة قد تقرب من العشرين .

فالشاعر يبكى المنزل الكبير أو الوطن ، ويتخذ من رسوم المنازل الدارسة وسيلة لإثارة الذكريات فى البيئة كلها .

يقول امرئ القيس فى المعلقة : قفا ياصاحبى نبكى الحبيب ، فقد كان ينزل فى هذا الإقليم الذى لم يندرس رسمه ، رغم عاديات الزمان وحملات الرياح . وها أنت ذا ترى بعر الظباء منتثراً فى الدمن والسهول كحب الفلفل . لكن صاحبى يطلب إلىّ التجلد ، وما علم أن شفائى فى إراقة الدموع ، وأن الوقوف بالرسوم لا يعدو أن يكون وسيلة ، لا غناء فيه لذاته . ثم يتحدث عن حبه ومغامراته فى أحضان الطبيعة .

---

(١) شرح ديوان زهير ؛ ط دار الكتب : ص ٥

ومطلع قصيدته :

أَلا عِمْ صباحاً أَيُّها الطَّلَلُ البالى وهل يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فى العُصُر الخالى !

مثل واضح لفناء الشاعر فى البيئة واتخاذه الطلل وسيلة ينفذ بها إلى أعماق نفسه فيثيرها حتى تتم الصلة بينها وبين البيئة . فيبدو الرسم الدارس إنساناً له أخلاقه وأوهامه ، وشقاؤه وبؤسه ، وقديمه وحديثه فيقول : اسعد صباحاً أيها الطلل البالى . وهل يسعدن من أسن وهرم ! ما السعادة إلا للحدث لاهَمَّ له ولا شواغل ولا فِكَر ، أما عهدك بالنعيم فقد بعد وكرت عليه الأيام والعوادى حتى بليت جدتك كما بليت ديار الحبيبة ، وتغيرت بكر الأمطار المتصلة عليها ! ثم يذكر الحبيبة بين الظباء ، والوديان بنبتها وخُزَاماها ، والآبار ، والجبال .

وكم أوى امرؤ القيس إلى الطبيعة والعراء فى البيئة الحبيبة بآفاقها وبذكرياتها ، فأظل رداءه فوق رأسه ، وقعد يعد الحصى ، ويسكب العبرات الهتون ، شاكياً نكراتِ الأيام وهموم الزمان ؟ ! .

وكم أشجاه البصر بالطلل البالى ، حين انقضى عهد الحب ، فقام يبكى الهوى ولياليه ، إذ كان يدعوه الغرام فيجيب ، وأعين الحبيب روان إليه ! .

ويقـــول :

لِمَنْ طَلَلٌ دائر آيُه وغَيَّره سَالِفُ الأَحْرُسِ
تُنكِره العينُ من حادِثٍ ويَعْرِفُه شَغَفُ الأَنْفُسِ

فترى نفسه قد امتزجت بالأطلال حتى لتتبينها فى غير حاجة إلى أعلام مادية تبين عنها ، ولا يخفيها التغير فى الشكل المادى ، فهذا ينطلى على البصر أما صلته فقوامها النفس وشغفها .

وما أشد معنى الفناء فى الطبيعة والإحياء لها فى قوله :

أَلِمَّا على الرَّبْعِ القديم بعَسْعَسَا كأَنِّى أُنادى أو أكلِّم أَخرسا !

فهو قد ضاق بالربع ، لقوة ما أحياه فى نفسه ، حين لم يرجع إليه جواباً ، فنعته بالأخرس ، واستجار من صمته .

وكذلك تهيأ لامرئ القيس معنى الفناء فى الطبيعة فى الوقوف بالأطلال على نحو أتم مما تهيأ له فى غيرها من موضوعات شعر الطبيعة ، وإن تم له فيها جميعاً معنى الفتنة والحب .

وبعد ، أفليست هذه المناجاة للرسوم والأطلال والبادية ورهبتها مما يتجلى فيه معنى الربط

التام بين الشاعر والطبيعة حتى يشكو إليها الوجد ، ويبثها ما فى نفسه ، ويستعينها ، وكثيراً ما تعينه ! .

وما الفرق بينها وبين صنيع لامارتين Alphonse de Lamartine حين وقف ببحيرتى : بورجيه وليمان Bourget et Leman فأسى حين لم توافه الحبيبة ، وقام يبكى ويذكر سوالف الحب ، وكيف كان يمتع النفس مع من أحب بجمال الطبيعة وعذوبة الغرام !

ثم ما الفرق بينها وبين صنيع بيرون حين وقف ببحيرة ليمان فى تجواله ، بعد أن ضاع حبه ، يطلب الدفء لفؤاده ، والسلوان لقلبه ، ويتمثل صوت الحبيبة فى انسياب المياه !

إن البعد عن تصور البيئة البدوية ووحيها هو الذى يخيل الفرق بينهما . لكن لا جرم ، أنه الشاعر فى الحالين ، قد اتخذ البحيرة فى الحضر رمزاً ودليلاً لحبه ، كما اتخذ الطلل البالى فى البادية ، حيث لا أمواج ولا بحار ، وإنما هى رمال وجبال .

ويتصل ببكاء الأطلال ويصحبه وصف رحيل الأحبة بين مناظر البيئة كما جاء فى الأبيات التى أولها :

فَشبهتهم فى الآل لما تكَمَّشوا حدائِقَ دَوْمٍ أو سَفِيناً مُقَيَّرا

فقد صور مراكب الأحبة فوق ظهور الإبل على مثال حدائق الدوم ، والسفن السوداء ، والنخل العالى ، وما على الهوادج من الوشى باحمرار اليسر فى خضرة النخل قد حمته بنو الربداء من أهل البحرين حتى أثمر وأينع ، ثم أتى عمال كسرى لجبايته يتأملون فيه وينعمون النظر إعجاباً .

وقد جمع بين معانى البادية ومعانى الحضر بقدر ما يتصل بالبدويين فى إيجاز بديع . جمع بين الجمل والسفينة ، وبين جدب البادية واعتمام الزهر ووفرة الثمر . وبدت نغمة الأسى فى حديثه عن هذا الثمر الذى ينضجه ويجنيه آخرون ، واستطاع أن يجلى هذا المنظر البدوى الرهيب لارتحال الأحبة فى صورة مزدهرة مشرقة .

٥

وقد أوردنا صور الطبيعة منوعة حسب الموضوع من الفرس والناقة وحيوان الصحراء والليل والبرق والمطر والأطلال والرحيل . وقد تبدو هذه الصور منفصلة فى الشعر العربى ، وقد يلائم هذا

ما يقتضيه البحث العلمى من تبويب . لكن هذه الصور فى الواقع وثيقة الصلة بعضها ببعض ؛ لا يقصد إليها الشاعر العربى منفصلة ، وإنما يقصد إليها متصلة . إنه يمثل الطبيعة البدوية بحبها وحيوانها وأعلام صحرائها . ونستطيع أن نتبين هذا فى جملة القصائد العربية .

وقد اتبع هذا المنهج امرؤ القيس ، فى المعلقة مثلا بكى الأطلال والهوى وطول الليل وتغزل ، ثم انساب فى الصحراء فوصفها بحيوانها ومظاهرها الطبيعية المختلفة . وهذا الإيراد الذى يراه البعض غريباً يمثل المرئيات الصحراوية كما تبدو أمام ناظر العربى ، وكما ترد فى شعوره وخياله مجتمعة . فالشاعر العربى يصور الصحراء وحدة تندرج تحتها هذه الموجودات الطبيعية المختلفة ، وهو حريص كل الحرص على أن يمثل كل ما يحيط به جملة ، ولذلك يفتن بالراحلة المطاوعة التى تيسر له الإلمام السريع بمناحى بيئته وتبلغه أغراضه منها ، ويلازم وصف الراحلة عنده أوصاف الطبيعة البدوية المتنوعة المظاهر .

وهو إذاً يمثل بيئته حين يجمع بين هذه الأوصاف ، وإذا قعدت به الحال عن أن يحقق فى الواقع الجمع بينها ، فخيال الشعراء من الخصب بحيث يتم الناقص ويحقق العسير ، ويرسم هذه الألوان التى تهفو إليها نفس الشاعر العربى ، وتصادف هوى من نفوس جماعته العربية ، بل تنال إعجابهم الشديد .

٦

وبعد ، فمن اللازم – بعد إيراد شعر الطبيعة عند امرئ القيس منشئه فى العربية – أن نتساءل : هل كان شعر الطبيعة أساسيًّا أو ثانويًّا ؟ أو بعبارة أخرى هل كان ينشد لذاته ، أو ضمن أغراض أخرى كالغزل وما إليه ؟ .

إن هذا الفن الشعرى قد استنفد أكثر من نصف الديوان ، وليس الغزل وهو الذى يليه فى الكم ببالغ ربعه . أما الأغراض الأخرى من المدح والهجاء والفخر ووصف الأسفار ، فليست شيئاً مذكوراً . وإذا أخذنا برأى من ينكر أحاديث الأسفار وما اتصل بها من مدح وهجاء ، وأحاديث الغزل الفاحش كاد شعر امرئ القيس أن يكون خالصاً للطبيعة .

على أننا نستطيع أن نتبين عنصر الهيام بالطبيعة واضحاً فى سائر الأغراض الأخرى .

فالأخيلة والتشبيهات تمثل هذا الهيام . وفى الغزل والخمريات نرى كثيراً من معانى الطبيعة . وقد رأينا أوصافه للفرس والطبيعة فى أحاديث الحرب والجهاد والفخر .

وقد يكفى هذا دليلا ماديًّا على أن شعر الطبيعة يقصد لذاته ، وعلى أنه الأصل الذى يتضمن ما سواه من الأغراض .

لكن هناك أدلة أخرى :

فهم يروون أن المعلقة أنشدت فى ذكر الغدير ودارة جلجل ، ويرجحون أنه أنشدها بين الماء والخضرة يمتع النفس بالطبيعة التى استأثرت بأكثرها .

والروايات تقرر أنه كان حين يماتن الشعراء يماتنهم فى أوصاف الطبيعة ؛ فنازع الحارث بن التوأم اليشكرى فى وصف البرق .

ولعل هذا لم يكن شأن امرئ القيس وحده ، فقد روى كذلك أن عبيد بن الأبرص ألقى على امرئ القيس أسئلة شعرية تتصل بالطبيعة فأجاب عنها امرؤ القيس . وقد تكون هذه الرواية أدنى إلى عمل المنتحلين لما يبدو فى النظم من ضعف وضعة . لكن المنتحلين لم يكونوا يخلقون على غير مثال ، وإنما كانوا يحاكون القدماء فى طرائق شعرهم .

وهناك قصة تكاد تكون متواترة فى كتب الأدب ، وإن شك فيها بعض المحدثين . تلك قصة امرئ القيس مع علقمة الفحل التميمى ، وادعاء كل منهما التقدم فى الشعر على صاحبه ، وطلب زوج امرئ القيس أن يصف كل منهما الخيل ، فلما فرغا حكمت لعلقمة على زوجها ، لأن امرأ القيس «جَهِد فرسه بسوطه ومَرَّاه بساقه ، وأتعبه بجهده» . أما علقمة «فلم يضرب فرسه بسوط ولم يَمْرِهِ بساق ، ولم يتعبه بزجر» .

وإذا نظرنا فى قصيدة امرئ القيس ، مع أنها قد قيلت فى الفرس كما يتبين من الرواية السابقة ، وجدنا ثلثها الأول فى وصف الأحبة ورحيلهم وذكر بعض الحكم .

وإذاً فيصح أن نستخلص من كل ما سبق أن بعض فنون الشعر الأخرى كانت تتبع وصف الطبيعة أو تندرج فيه ، وأن حديث الغزل لم يكن فى هذا الدور أساسيًّا ، وإنما كان استفتاحاً غير مقصود لذاته .

٧

هل قدر القدماء مكانة امرئ القيس كشاعر للطبيعة ، بل إمام شعرائها ؟

لا جرم أن هناك إشارات تدل على هذا ؛ فلبيد مرّ بالكوفة فسئل : من أشعر الناس ؟ فقال : الملك الضِّلِّيل [١] .

وروى أن رسول الله ﷺ قال فيه : « ذلك رجل مذكور فى الدنيا شريف فيها ، منسى فى الآخرة خامل فيها ، يجىء يوم القيامة معه لواء الشعر إلى النار» [٢] . وروى « يتدهدى بهم فى النار» ، وأن كلا من لبيد وحسان ، وكانا حاضرين قال : « ليت هذه المقالة فىّ وأنا المدهدى فى النار» [٣] .

وقال عمر بن الخطاب فى الشعراء : « امرؤ القيس سابقهم ، خسف لهم عين الشعر» [٤] .

وقال على بن أبى طالب : « إن يكن أحد أفضلهم فالذى لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس بن حجر ، فإنه كان أصحهم بادرة ، وأجودهم نادرة » .

وعبارتا عمر وعلىّ عظيمتا الدلالة الفنية ؛ فالأولى تضع امرأ القيس فى موضعه من زعامة الشعر العربى ، والثانية تنطق بتقدير امرئ القيس شاعراً يحب الفن لذاته ، ويصدر عن شعوره وملاحظته .

ولعل معنى البراعة فى شعر الطبيعة أو الوصف بعامة كان ملحوظاً من قولهم : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب » [٥] .

وتحدث النقاد القدماء كثيراً عن براعة تشبيهاته وأولياته فى وصف الخيل والليل والطير وغيرها على طريقتهم التى تعنى بالمعانى الجزئية [٦] .

وفصل بعضهم معانى امرئ القيس الطريفة فقال : « إن امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه

---

(١) طبقات ابن سلام : ص ١٦ ، وبلوغ الأرب : ج ١ ص ١٣١

(٢) الأغانى (دار الكتب) : ج ٨ ص ١٩٩ .

(٣) بلوغ الأرب : ج ١ ص ٩٣٣ .

(٤) الأغانى : ج ٨ ص ١٩٩ .

(٥) إعجاز القرآن للباقلانى : ط مطبعة الإسلام سنة ١٣١٥ ص ٣٠ ، والصناعتين ط صبيح الثانية : ص ٢٢ .

(٦) العقد الفريد (لجنة التأليف) : ج ١ ص ١٩١–١٩٣ ، وأعلام الكلام لابن شرف القيروانى ط مصر : ص ١٥–١٦

قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها لأنه ، قيل ، أول من لطف المعانى ، واستوقف على الطلول . ووصف النساء بالظباء والمها والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيد ، وقرب مأخذ الكلام ، فقيد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه »[1] .

وسئل الأصمعى : من أشعر الناس ؟ فقال : الفاتح لأبواب المعانى ، وهو امرؤ القيس حيث يقول :

كأن عيون الوحش حول خِبائنا وأرحُلِنا الجزعُ الذى لم يُثقَّب[2]

وقال الفرزدق : امرؤ القيس أشعر الناس[4] .

وسأل عبدالملك بن مروان رَوْحَ بن زِنباع : من أشعر العرب ؟ فقال الذى يقول : كأن عيون الوحش ، إلخ . والذى يقول :

كأن قلوبَ الطير رَطباً ويابسا لدى وكرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى

وقال يونس بن حبيب النحوى : قدم علينا ذو الرمة من سفر ، وكان أحسن الناس وصفاً للمطر ، فاختار قول امرئ القيس :

دِيمةٌ هَطلاءُ فيها وَطَفٌ طَبَقُ الأرض تَحَرَّى وتَدُر[3]

والباقلانى ، رغم قصده إلى مهاجمة امرئ القيس والشعر الجاهلى من ورائه ، وتجنبه فى هذا السبيل ليصل إلى تقرير إعجاز القرآن ، لم يجد بدًّا من الإعجاب بوصف الليل عنده[5] .

والواقع أن امرأ القيس قد أثر فى الشعر العربى ، وبخاصة شعر الطبيعة تأثيراً كبيراً . وليس سلطان هومر فى الأدب اليونانى أو شكسبير فى الأدب الإنجليزى بأعظم من سلطان امرئ القيس فى الأدب العربى . كان شاعراً للطبيعة من الطراز الأول . لا يعرف التكلف ولا التصنع ، وإنما يمثلها كما امتثلتها نفسه فى حالاتها المختلفة . وقد ثبت هذا الفن فى أشكال لم يستطع الفكاك منها إلا بعسر كما سنرى بعد . فما الذى هيأ لوجود هذا الفن ممتازاً عنده ؟[6]

---

(١) العمدة : ص ٦٠ .
(٢) الخزانة لابن حجة : ص ٢٨٩ .
(٣) الجمهرة : ص ٧٥ .
(٤) ذيل الأمالى : ص ٣٠ .
(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٣٥ .
(٦) إعجاز القرآن للباقلانى : ص ٧٤ - ١٠٠ .

٨

إن هذا الامتياز مستقيم مع طبيعة الحياة البدوية التى تؤدى بصاحبها إلى الفناء فى البيئة والتغنى بها ، وقد سبق الكلام عليه ، كما أنه مستقيم مع حياة امرئ القيس الخاصة التى نرى الإشارة إلى مقوماتها بقدر ما يتصل بموضوعنا وبفسره .

وقبيلة كندة التى ينتسب إليها امرؤ القيس يمنية الأصل . لكن أحد أجداده ، وهو حجر آكل المرار ، انتقل بأهله إلى ديار بكر فى مقاطعة نجد ، وترك اليمن . فامرؤ القيس نجدى من لدن جده الثالث ، وصلته باليمن تاريخية لا أكثر . ولهذا عده أبو عبيدة وابن قتيبة وغيرهما من أهل الوبر .

وقد نشأ امرؤ القيس فى بيت عز وترف ، ولم يكد يشب حتى طرده أبوه ، وظل طريداً حتى قتل أبوه ، وهو فى الخامسة والعشرين من عمره فحمل عبء الثأر له حتى مات .

واختلف الرواة فى سبب طرده ، فقيل إنه آلى ألا يقيم معه أنفة من الشعر وقوله على عادة الملوك ، وقيل إنه كان يتعشق امرأة أبيه هرًّا ، ويشبب بها مفحشاً .

وفى رواية ثالثة إنه أمعن فى المجون واللهو ، وقعد عن مطالب الأمراء الرفيعة ، فضاق به أبوه ، واستشار بطانته فى أمره ، فأشاروا بأن يجعله راعياً للإبل لكن امرأ القيس استمر فى لهوه مسروراً بصحبة الإبل ؛ فقالوا : أرسله فى الخيل ، فكان أشد بها سروراً وفى لهوه إمعاناً ؛ فقالوا : أرسله فى الضأن ، فرعاها امرؤ القيس نهاراً أتعبه حتى نسى اللهو فى ليله . حينئذ فرح أبوه ، لكن امرأ القيس لم يلبث أن خرج بها فى صباح اليوم التالى حتى أبعد ، ثم حثا فى وجهها التراب ، وتركها طعمة لذئاب الصحراء ، فنقم عليه أبوه وطرده [1] .

وهذه الرواية تشرح فتنة امرئ القيس بالخيل والإبل ؛ تلك الفتنة التى عبر عنها فى شعره بأساليب مختلفة ، كما أنها أقرب إلى الصدق من الروايتين السابقتين لبعد الأولى عن تصوير النزعة العربية فى إعزاز الشعر ، وغرابة الثانية عن المألوف .

ومهما يكن من أمر فقد ترك هذا الإبعاد فى نفس امرئ القيس أثراً عميقاً ، وكان وقعه عليه شديداً ، فألقى بنفسه فى أحضان الطبيعة واللهو هرباً من هذه الحال الأليمة . ويلخص

(١) الجمهرة : ص ٨٤– ٨٥ .

الرواة قصة حياته فى هذا الطور بأنه كان يجمع حوله فئة من شُذّاذ العرب وذؤبانهم ؛ ينتقل من مكان إلى آخر ، فإذا صادفوا غديراً أو روضة أو موضع صيد ، نزلوا فيه فاصطادوا وأكلوا وشربوا ، وأقاموا ينشدون الشعر حتى ينضب ماء الغدير أو ينفد الصيد ، فيحملهم امرؤ القيس إلى غيره . وهكذا ظل يجوب الصحراء ويقيم فى داراتها ورياضها ومنابع مائها حتى صار حجة فى معرفتها (١) .

فهو لم يسلك هذا الطريق طوعاً وإنما أُكْرِهَ عليه ترويحاً للنفس . وكيف يرضى إنسان أن يعدل بنفسه عن حياة العزّ فى منازل الشرف إلى حياة التشرد فى الصحراء ! ولولا أن نفسه قد طبعت على المرح والاستهانة ، ولولا أنه كان صغيراً لا يقدر هذه الحال حق قدرها ، ما قوى على تحمل هذه الحياة بعد حياته الأولى المترفة .

ومن هنا ظهرت الآلام والشكوى فى شعره ، وكان ترجيعه لصوت الطبيعة محزناً . وإن غشّى اللهوُ الذى تعلل به على هذه الحقيقة فى الأحيان . وقوله حين نُعى إليه أبوه ، وهو بدمّون من أراضى الشام المزهرة أو اليمن : «ضيعنى صغيراً ، وحملنى دمه كبيراً» ، ينطق بأنه سلك هذه الحياة كارهاً على علمه بأنها ضائعة ذليلة .

ولعله بالغ فى البكاء على الأطلال الدارسة والرسوم الحائلة ؛ إن لم يكن مبتكر هذا الفن ، استجابة لنفسه التى عضها الألم ، وحزّ فيها تغير الحال .

وهكذا هيأ له عنصر الألم دقة الشعور بالطبيعة والتبريز فى شعرها ، وأفاض على فنه مسحة من الحزن والتأمل تتميز بها الجمهرة من شعراء هذا الفن .

وما أشبه شاعر الطبيعة الإنجليزى Byron بشاعرنا ؛ فكلاهما من بيت مجد ، وكلاهما مات مبكراً فى العقد الرابع من حياته . وامرؤ القيس بعد أن لفظه أبوه ولفظته الجماعة العربية ، أقبل على الطبيعة يتعزى بها ويفنى فيها ويتخذ من الصحراء والواحات والفرس والصيد عزاء . وبيرون حين طلق زوجه ، وصاغ الناس فيه أفانين القصص ولعنوه بعد أن عبدوه ، ضاق ذرعاً بوطنه ، فأخذ يذرع أوربا ؛ يعلو الجبال ، ويخترق السهول ، ويأوى إلى البحيرات والأنهار والغابات ، ويتخذ من الشعر فى كل ذلك سلواناً . وبيرون قتل فى حرب اليونان للحرية ، بعيداً عن وطنه ، بعد أن عاش ، بفضول الناس وظلم الجماعة ، شريداً . وامرؤ القيس مات فى التشرد يطلب الثأر لأبيه ، بعد أن شرده أبوه والجماعة من وراثه .

(١) الأغانى : ٨–٣٨ ؛ والشعر والشعراء : ص ٣٦ ، والأمالى : ج ١ ص ١٨٢ ، ٢٣٧ – ٢٥٢ .

والحق أن امرأ القيس قد أغنى الشعر العربى بصور بارعة للصحراء وحيوانها ومظاهرها الطبيعية . وحيوان الصحراء ، أو الطبيعة الحية ، قد استولى على أكثر شعره أما الطبيعة الصامتة فكان حظها أقل . وهو فى الحالين قد فلسف الطبيعة ، وبثها آلامه ، وتوثقت الروابط بينه وبينها ، حتى بدت كأنها جزء من نفسه ، أو صورة لها صيغت على غراره ، وتحققت لها أهواؤه وأحساسه .

وقد جمّل بيئته حتى خلناها غير جزيرة العرب بصحرائها ونجدها ، بل عالماً آخرَ جميلا . لكنها العبقرية ؛ تلك القوة التى تتناول المألوف ، فتنفخ فيه من روحها ، وتخلقه خلقاً جديداً ! .

الفصل الثانى

الطبيعة فى شعر معاصريه

١

وشعر المهلهل يدور جله حول بكاء أخيه الذى ملك عليه قلبه وعقله . وأسلوبه سهل ، ولهذا أنكره بعض المحدثين . أما القدماء فقالوا ، إن هذه خاصية فيه : ومن أجلها سمى مهلهلاً ، «لأنه هلهل الشعر أى أرقّه» .

ونسب إليه فى بكاء الأطلال قوله ؛ فى مطلع قصيدة يستثير بها قومه للقتال طلباً لثأر كليب ، ويبكى الأبطال الذاهبين من قبيله :

هل عرفتَ الغداة من أطلال رَهنَ ريحٍ وديمةٍ مِهْطَالِ
يستبين الحليمُ فيها رسوما دارسات كصنعة العمال
قد رآها وأهلُها أهل صدق لا يريدون نيةَ الإرتحال (١)

وإن صحت هذه الأبيات فنحن لا نحس فيها مثل ما نحسه فى وقفات امرئ القيس من روعة فى المعنى واللفظ والشعور . وشتان بين من يبكى الأطلال فى ظلال الحماسة ، ومن يبكيها فى ظلال الحب !

ولعل المهلهل قد اعتذر عن قصوره فى هذا الباب أو عن إهماله إياه حين قال :

كيف يبكى الطلولَ من هو رهن بطِعانِ الأنام جيلاً فجيلا ؟ !

ولم نر فى شعره وصفاً للصحراء وحيوانها وبرقها ومطرها ، ولم يذكر الخيل إلا فى اقتضاب ، حين تحدث عن شجاعة تغلب وبطولتها ؛ مشبِّهاً لها بالطير حيناً ، وبالسعالى حيناً آخر ، وبالأسود حيناً ثالثاً .

---

(١) الأب لويس شيخو : شعراء النصرانية ، ط بيروت سنة ١٩٢٨ : ج ١ ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

على أنه قد ذكر الليل ، وسهر يرقب مصابيح السماء ، وشكا طوله ، «كأن ليس له نهار» ، ووصف النجوم فى قوله :

كأن كواكب الجَوْزاء عُوذٌ مُعَطَّفَةٌ عَـلى رُبَع كَسِيرِ
كأن الجَدْى فى مَثْناةِ رَبْـقٍ أسيرٌ أو بمنزلـة الأسير
كأن النَّجْمَ إذْ ولّى سُحَيْراً فِصـالٌ جُلْنَ فى يَومٍ مَطِيرِ
كواكبُها زَواحِفُ لاَغِبـاتٌ كَأَنَّ سَمَاءَهـا بِيَدَىْ مُـدِيرِ
كواكب ليلةٍ طَالَتْ وَغُمَّتْ فَهَـذا الصبحُ راغمةً فَغُورى

والمتأمل فى هذا الوصف يجده تبسيطاً لوصف امرئ القيس . اشترك معه فى الباعث وهو الضيق ، وفى مواد الصورة الأساسية وهى الإبل والتثبيت بالحبال وجمود الكواكب ، لكنه هنا قد فصل ، فذكر النياق تبكى على طفلها الكسير ، والسير فى يوم مطير ، والقبض على زمام السماء ، وأحوال الكواكب وانصرافها بعد طول العناء ، وزادت نغمة الحزن والألم والضيق بالليل ، أما عند امرئ القيس فالتصوير أروع ، والإيجاز يضفى على الصورة جلالاً ، والغموض يكسبها مزيداً من الروعة .

وفى رواية لهذه القصيدة جاء هذان البيتان فى أواخرها :

كـأن الجَدْى جدى بنات نعْش يكُب على اليـدين بمستدير
وتخبو الشِّعْرَيان إلى سُهَيْل يلوح كقِمة الجبل الكبير

وفى البيت الأول جمال فى التشبيه ، وفى الاثنين تفسير شعرى لارتباط النجوم وانجذاب بعضها إلى بعض . وهذا لا ريب قدر ضئيل من شعر الطبيعة ، لكن الواقع من أمر شعراء الحماسة والفخر يفسره . فهؤلاء الشعراء قلما يعنون بالطبيعة .

وقصة حياة المهلهل مقنعة فى تفسير شعره الطبيعى ، فهم يقولون إنه لم يقل الشعر إلا كبيراً استجابة لحزنه على فقد أخيه . ومن هنا فات عليه دور الشباب الذى يحفل بالحب ، وبما يبعثه الحب من هيام بالطبيعة . وشغل عنها كبيراً ببكاء من أحب ؛ فلم يستوقفه من مظاهرها إلا تلك المصابيح الساطعة ، لا يستطيع أعرابىٌّ التغاضى عنها ، وبخاصة الحزين الذى يرعاها فى ليلة الساهر .

٢

وشعر علقمة المأثور قليل ، لكنه قد ظفر بقدر مذكور من شعر الطبيعة . ففى قصيدته :

طحا بك قلبٌ فى الحسان طروبُ بُعَيْدَ الشبابِ عَصْرَ حانَ مشيبُ

وصف الناقة فى ثلاثة عشر بيتاً فقال : دع النساء وآلامهم ، وتعزّ عن الهم بناقة قوية سريعة ، قد أضمرها طول السير واتصاله ليل نهار ، لكنها تصبح بعد السرى الطويل نشيطة متوقدة كأنها حمار وحش قد ترصد له الصياد بين الشجر فنفر منه . تمشى بالعشىّ مهتدية بالنجوم فى طريق وعر قد برزت فيه عظام بيضاء ، وبقايا جلود من دواب أنفقها الجهد . سقيتها ماء تغير حتى صار كالحناء ، ثم رعيتها قليلاً لتستأنف السير من جديد .

وفى قصيدته التى مطلعها :

ذهبت من الهِجرانِ فى غير مَذْهبِ ولم يك حقا كلُّ هذا التجنُّبِ

وصف الناقة فى ستة أبيات فقال إنها ضامرة صلبة سريعة ، عينها تلمع كالمرآة ، وكأن ذنبها حين تسرع عذق نخلة يضرب جانبى فخذيها ، وقد تمره عليهما فى يسر كما يمر ذيل الثوب الطويل على الأرض .

وفى القطعة التى أولها :

وشامتٍ بىَ لا تَخْفَى عداوتهُ إذا حِمَامِىَ ساقَتْهُ المقادير

ذكر أنه أورد الإبل وصدور العيس مرتفعة ، والصبح قد شقه الكوكب الدرى ، فاستبشر القوم بالصباح حين بدا بعد طول السير .

ووصف الناقة كذلك فى القطعة التى أولها :

هل ما عَلِمْتَ وما استُودِعْتَ مكتومُ أم حبلُها إذ نأتكَ اليومَ مَصْرُومْ

فقال :

فالعَيْنُ منى كأن غرب تُحيط به دهماءُ حاركُها بالقَتْبِ مخزُومُ
قد عُرِّيَتْ حقبة حتى استَطَفَّ لها كِتْر كَحافةِ كِيرِ القينِ ملمومْ
كأن غِسْلَةَ خِطْمِيٍّ بِمِشْفَرِها فى الخد منها وفى اللّحيين تلغيم
قد أدبر العُرُّ عنها وهى شاملُها من ناصع القطرانِ الصِّرفِ ترسيم
تَسْقى مذانبَ قد زالت عصيفتُها حَدُورُهَا من أتِىِّ الماء مطموم

هل تُلحِقَنّى بأولى القوم إذ شَحَطوا ... جُلْذِيَّةٌ كأتانِ الضحل عُلْكُومُ
تُلاحظ الصوت شزْراً وهى ضامرة ... كما تَوَجَّسَ طاوى الكشح موشوم
كأنها خاضب زُعرٌ قوائمه ... أجنى له بالُّلوى شَرْىٌ وتَنُّوم
فوه كشَقّ العصا لأياً تَبَيَّنُه ... أسَكُّ ما يسمع الأصوات مَصْلُومُ
حتى تذكر بيضاتٍ وهيجهُ ... يومُ رذاذٍ عليهِ الريحُ مغيوم
فلا تزيُّده فى مشيه نَفِقٌ ... ولا الزفيف دُوَيْنَ الشد مَسْموم
يكاد منسمُه يختلُّ مقلته ... كأنه حاذر للنحس مشهوم
يأوى إلى خُرَّقٍ زُعرٍ قوادمها ... كأنهن إذا بَرّكن جُرثوم
وَضَّاعَةٌ كعِصِىِّ الشَّرع جُؤْجُؤُهُ ... كأنه بِتَنَاهِى الروض عُلجوم
حتى تَلاَقَى وقرن الشمس مرتفع ... أُدْحِىَّ عِرْسَيْن فيه البيض مركوم
يوحى إليها بإنقاض ونقنقة ... كما تراطنُ فى أفدانها الروم
صَعْلٌ كأن جناحيه وجؤجؤه ... بيت أطافت به خرقاء مهجوم
تحفه هِقْلَةٌ سطعاءُ حاضِعَةٌ ... تُجيبه بِزِمار فيه ترنيم

وقد اتخذ الناقة سبيلاً إلى وصف الظليم . ويبدو أن الظليم عنده هو العربى فى صورة طائر ؛ يرعى فإذا تذكر داعى النجدة ترك المكان الخصيب ، وسار لا يلوى على شىء إلا حماية العشيرة . وحياته مع أسرته إنسانية خالصة ، بل إنسانية مهذبة ؛ فيها أحاديث وقوة وضعف من الرجل ، ونغمات وعذوبة من المرأة ، مع تحيات للقادم وترفيه عنه . وإذا كانت فى مظهرها حياة ساذجة ، فهى فى حقيقتها كحياة الروم فى القصور العالية .

وهذا اللون من الوصف للظليم يعتبر فريداً فى هذا الدور ، وريحه تهب فى الواقع من ميدان عقلى فسيح ، ومعنى الإنسانية فيه أظهر ؛ لا يبدو من وراء الحجب ، وإنما يبدو متجرداً صريحاً ، وصفة القص فيه أقوى وأتم .

أما الفن فقوامه الدقة فى التصوير ، ولهذا أكثر من استعمال الفعل المضارع ، وأبرز أدق الأوصاف ؛ من الخطوط الخضراء فى الحنظل الأحمر ، والأذن الصغيرة ، والفم الضيق ، والنظر شذراً ، والتسمع ، وتطاير الظفر ، وإصابة المقلة ، وميل الرأس ، ودرجات الصوت ، وما إلى ذلك من الأوصاف التى تعطى للصورة معانى الكمال والوضوح .

وهذه الدقة مع الإعجاب بالظليم وحسن التشبيه ، قد أكسبت الوصف حياة وإبداعاً ،

يضفيان جمالاً على بساطة الخيال وواقعية التفكير.

وتتضح دقة الفن كذلك فى أوصافه السابقة للناقة ، حين يتحدث مثلاً عن حركات الذنب فى حالى السرعة والونى . وارتفاع صدور العيس وقت ورود الماء ، واجتماع كير الحداد . لكن شتان بين هذه الأوصاف وبين وصفه البديع للظليم .

وفى قصيدته التى مطلعها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

وصف الفرس فقال : قد أقود فرساً كريمة طويلة ، ليس بها فساد فى وظيفها ولا فى حوافرها ، وهى فى ضمورها عصا يمنى ، إذا حثت على السير صوتت كالدف ، يسرع بها جمل عظيم أسود الخدين مجرب يحن إلى أولاده .

وفى قصيدته :

ذهبت من الهجران غير مذنب ولم يك حقًّا كل هذا التجنب

وصفه كوصف امرئ القيس ، وشاركه فى كثير من اللفظ .

على أننا فى الجزء المتصل بسرعة الفرس ، والذى قيل إن أم جندب فاضلت بينهما فيه ، نجد فرقاً فى الوصفين . فعلقمة يصف أجزاء الفرس وقوته ، وكيف أدرك به مأربه ، وامرؤ القيس يصف رياضته على السير .

والحق أننا نرى بين الوصفين ، فى بعض الروايات ، إسرافاً فى الإتفاق ، وفى بعضها اقتصاداً . كما أن الفرق بينهما كبير فى ترتيب الأبيات وعددها . مما يجعل حجة الشاكين راجحة . وإن لم يبعد نجوم هذا من اضطراب الروايات ، وخلطها بين قصيدتين اتفقتا فى الغرض وفى الوزن والقافية .

وهكذا نجد طرافة موفورة فى وصف الظليم ، وقليلاً منها فى وصف الناقة . أما الفرس فلعل امرأ القيس لم يترك بعده زيادة لمستزيد ، أولعل الشعراء من بعده فهموا ذلك .

٣

أما عبيد بن الأبرص فالتحقيق العلمى يثبت أنه عاش بين منتصف القرنين الخامس والسادس للميلاد ، وأنه رأى حجراً أبا امرئ القيس ، وأنه لم يقل الشعر إلا كبيراً [١] ، وإن

(١) ديوان عبيد ، ط ليدن سنة ١٩١٣ : مقدمة Charls Lyall وترجمته فى الأغانى ، ط ساسى : جـ١٩ .

كانت بعض الروايات تتأخر بوفاته .

وقد وصف الخيل والإبل والصحراء ومناظرها مثل وصف امرئ القيس لها . لكنه عنى بوصف البرق والمطر والسحاب والعواصف عناية تستحق وقفة . ومن اليسير أن نتبين فيها معانى امرئ القيس معروضة عرضاً سهلاً مطاوعاً تكسبه المميزات الشخصية طرافة . ومنها قوله :

سَقى الرَّباب مُجَلْجِل الـ أكناف لماحٌ بُروقه
جَوْنٌ تكفكفه الصَّبا وَهْناً وَتُمرِيهِ خريقه
مرْى الْعسيف عِشاره حتى إذا دَرَّت عُروقُه
ودنا يضيء رَبَابُهُ غاباً يُضَرِّمُه حريقه
حتى إذا ماذَرْعُه بالماء ضاق فما يُطيقه
هبّت له من خلفه ريح يَمَانِية تسوقه
حلّت عَزاليَه الجنو ب فَثَجَّ واهِيَةً خُروقه

فهذا اللون من متابعة الرياح للسحب واستدرار المطر منها معروف عند امرئ القيس . لكن هذا الوصف يمتاز بوضوح التمثيل والإطناب ؛ فتبدو الرياح مشتبكة مع السحب ، تلاينها حيناً ، وتشتد عليها حيناً ، حتى يضيق ذرعها بالماء فتلقيه . ويبدو الشاعر أشد إعجاباً بهذه المعركة . والتأثر بالبيئة واضح ، حين يذكر العبد يمرى ضروع العشار الغزيرة اللبن .

وقد تكرر هذا الضرب من الوصف فى مواضع أخرى من شعره بين الإطناب والإيجاز . وجملة المعانى ليست جديدة بعد الذى مرّ فى شعر امرئ القيس .

ومعلقته أو القصيدة التى مطلعها :

أَقْفَرَ من أهله مَلحُوب فالقُطبِيَّاتُ فالذَّنُوبُ

تدور حول وصف الطبيعة . أما هذا الجزء الذى يعظ فيه الشاعر ، ويتحدث عن الله والتوحيد (١) . فواضح فيه الغرابة عن موضوعات القصيدة ؛ بوضعه بين حديث الأطلال وورود الماء ووصف الفرس ، وبالنغمة الإسلامية الواضحة فيه ، وبخاصة إذا ذكرنا ديدن الشاعر الجاهلى فى الخلاص من الأطلال إلى حديث الراحلة .

وقد بدأها بالحديث عن الأطلال حديثاً عدد فيه منازل الحبيبة ، وقال إنها أصبحت قفراً تسكنها الوحوش وتتوارثها الجدوب ، من حل بها سلب . ثم يتحدث عن الدمع المسكوب من

(١) من البيت ١٦ - ٢٦ .

العينين كأن مجراه مزادة انشقت ، أو مسيل الماء من هضبة متحدرة ، أو نهر صغير يجرى نازلاً فى بطن واد ، أو جدول ينسكب ماؤه فى ظلال نخل . ويقول بعد حديث التوحيد : رب ماء آجن مخوف المسلك ، وردته على ناقة مشرفة الحارك ، متوسطة البدن ، قد استراحت من الحمل ، كأنما هى حمار وحش بجانبه آثار العض ، أو ثور يرعى مكاناً خصيباً . ثم يصف الفرس بمعان مرت عند امرئ القيس ؛ من التضبير ولين الأسر ، والطول ، والتشبيه بالعقاب يبست قلوب الطير حول وكرها .

والطريف عنده وصف العقاب فى معركة الصيد ؛ إذ يقول : إنها باتت على ربوة صائمة كعجوز يمنعها الثكل عن الطعام والشراب . قد أصبحت مقرورة يتساقط الجليد عنها ، فبصرت بثعلب يعدو فى سهل فسيح ، فنفضت ما على رأسها من الجليد والندى ، وجرت تطارد الثعلب ، فرفع ذنبه وأخذ يتخبط فى سيره فزعاً من مطاردتها له ، ثم انسابت نحوه مسرعة ، فانقلب بياض عينيه حين لحقته وتقدمته ، ثم انقضت عليه وضرجته وهو مكروب من تحتها ، ثم طرحته على الأرض الصلبة ، فأدمت وجهه ، ثم عادت فرفته وأرسلته مكروباً يصوت من آثار ما أغمدت فى جنبه فنقبت صدره .

كأنها لِقُوة طَلُوبُ ... يَيْبَسُ فى وكرها القلوب
باتت على إرَمٍ عَذُوباً ... كأنها شَيْخَةٌ رَقُوبُ
فأصبحت فى غَداة قُرٍّ ... يقُطُّ عن ريشها الضريبُ
فأبصرت ثعلباً سريعاً ... ودونه سبسبٌ جديب
فنفضت ريشها وولت ... وهى من نهضَةٍ قريب
فاشتال وارتاع من حسيس ... وفعلَه يفعل المذؤوب
فنهضت نحوه حثيثاً ... وحردت حردهُ تَسيب
فدب من خلفها دبيباً ... والعين حِملاقها مقلوب
فأدركته فطَرّحته ... والصيد من تحتها مكروب
فجدّلته فطرّحته ... فَكَدَحَتْ وجَهه الجَبُوب
فعاودته فرفّعته ... فأرسلته وهو مكروب
يضغو ومِخلبها فى دفه ... لابد حيزومُه منقُوبُ

وهذا التمثيل يبدو حياً ، بل عظيم النشاط ؛ تتابع الأفعال فيه تتابعاً ، وتشتد الحركات

اشتداداً ، حتى ليبصر الإنسان بالمعركة ناشبة أمامه ، ويكمل فيه معنى القص والتتبع حتى يخال القارئ الشاعر قصاصاً . وبقدر ما أجاد فى تصوير قوة الصائد وبطشه ، وعنف حركاته وسرعتها ، أجاد فى تصوير ضعف الصيد واضطرابه وتخاذله وفزعه . كما أن فيه شيئاً آخر جديراً بالتأمل ؛ ذلك هو التمثيل لبطش العقاب وغريزة الفتك المركبة فيه ، حتى إذا رأى فريسته استيقظ من خموله ، وهب من ضعفه ، وثارت فى نفسه كل معانى العدوان . ويقابله التمثيل بضعف الصيد واضطرابه ، واستسلامه لرحمة القدريصرفه كيف شاء ، فاقد الإرادة ، لا يبدى مقاومة ولا حراكاً . ولعل هذا تمثيل للإنسان القوىّ يفتك بأخيه الضعيف .

ويظهر أن عبيداً كان يمثل فى هذا الشعر تجاربه ومشاهداته وإحساسه . فالروايات تمثله شاعراً حساساً رقيقاً ، تؤلمه الكلمة ، ويعطف على المخلوقات جميعاً حتى على الحيات يسقيها الماء حين يجهدها العطش فى الهاجرة ، كما تمثله فقيراً جاهداً فى طلب العيش ، يرعى الغنم مع أخته ، ويكد فى طلب القوت ، فأثارت الآلام شاعريته وأطلقت لسانه .

الفصل الثالث

الطبيعة فى شعر الصعاليك

والصعاليك هم طائفة من العرب يلقبون كذلك بالعدائين ، يسبقون الخيل ولا تلحقهم . مثل الشنفرى ، وتأبط شرًّا ، والسُّليك بن السُّلَكَة ، وعمرو بن البراق ، وأُسيد بن جابر .

وكتب الأدب تطنب فى حديث هذه الجماعة ، وكيف اتخذت النهب والسلب حرفة ومعاشاً . ووردت أشعار لبعضهم تمثل حياتهم ، وكيف يلوذون بالصحراء ووحشها فراراً من بنى الإنسان .

ومن الشعر المنسوب للشنفرى القصيدة المعروفة بلامية العرب (١) . وفى هذه القصيدة يفضل الشاعر النمر والذئب والضبع على قومه ، ويقول إنه قد اتخذ منهم أصدقاء أكثر وفاءً له من أهله ، وإنه يعيش على القوت الزهيد كذئب أغبر ضامر يحيا فى الفلوات الجدباء . أصبح جائعاً فانطلق بين الشعاب يسابق الريح بحثاً عن القوت ، حتى أعياه البحث ، فدعا أصحابه الذئاب ، فسارت إليه هزيلة شيب الوجوه ، كأنها منه السهام من اللاعب يحركها فى يديه ، أو رئيس النحل فر حاضًّا جماعته على اللحاق به حين أثارهم مشتار العسل بعيدانه .

وهذه الذئاب بشعة الخَلْق ، مغبرة الوجوه ، مشقوقة الأفواه ، فاتحة إياها كأن جوانبها عصى مشقوقة . وحين اجتمعت من حوله فى فضاء الأرض ضج بالبكاء ، فضجت من بعده ، كأنه وإياها نائحات ثكل . لكنها لم تلبث أن أقلعت عن البكاء ولاذت بالصبر ، فما هى بأول من فقد الزاد . وما أجمل الصبر حيث لا تنفع الشكوى ! وهكذا حين عدمت الصيد ركنت إلى الصبر مستعينة به على شدة الجوع .

ولا جرم أن هذا تمثيل بديع لحال الذئاب الجائعة ، يشعر بمدى إلف الشاعر للوحش ،

---

(١) قصيدة تبلغ ٦٧ أو٦٨ بيتاً . وقيل إنها من وضع خلف الأحمر ، وإنه أظهر فيها براعة فائقة فى الشعر على مذاهب العرب القديمة . وإذاً فيمكن أن تمثل لون شعرهم على الحالين . راجع الأمالى : ج ١ ص ١٥٦ ، والنوادر : ص ٢٠٣–٢٠٥ . ومطلعها .

«أقيموا ، بنى أمى ، صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل »

واندماجه فيه ، وبراعته فى إسباغ الصفات الإنسانية عليه ، من نظام الجماعة والجزع ، والتأسى والصبر . كما أنه قد أحسن التصوير ، وجعله واضحاً مشخصاً فاتناً ، يقسر القارئ على مشاركته العطف على هذه الجماعة وحالها ، والجزع لفقدانها الصيد ، وإن كان الصيد عدواناً .

وانتقل من وصف الذئاب ، أو على الأصح حالها ، إلى وصف حال الطير وسبقه إياها إلى الشراب فقال : إننى أسبق طير القطا إلى الشراب ، فيشرب فضلاتى بعد أن يمضى الليل ضارباً جنبيه بجناحيه . لقد سرت وإياها إلى الماء مشمراً عن ساعد الجد وهى متثاقلة حتى سبقتها ، فشربت وانصرفت وهى لا تزال دانية من الماء ، تسقط لوجهها من شدة السير فتقع أذقانها وحواصلها حول الماء ، ولها ضجة كأنها جماعات القبائل نزلت بعد طول السفر حول المنهل ، أو طوائف الإبل وردت الماء من أنحاء متفرقة .

وهذا التمثيل يشبه تمثيل الذئاب من ناحية الإلف والإنسانية ، ويدل كذلك على مدى اندماج الصعلوك العربى فى الطبيعة الحية .

وقد عبر تأبط شرًّا عن حياة الصعاليك بقوله :

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفْنه ... ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعاً[1]

كما وصفها مسهباً فى قصيدته :

يا عيدُ مالك من شوق وإبراق ... ومرّ طيف على الأهوال طرّاق[2]

ونُسبت إليه قطعة من أربعة أبيات[3] ، وردت فى معلقة امرئ القيس جاء فيها : إنه جاب وادياً قفراً ، حاملاً قِرْبة على كاهله ، والذئب يعوى ، فلقيه لقاء الصديق وقال له : كلانا بائس لا يبقى على شىء فى يديه .

وهذا التصوير يتفق مع حياة هذه الجماعة التى اشتد نفورها من بنى الإنسان حتى صادقت الذئاب ، ووجدت فى حالها ما تتعزى به عن بأساء الحياة ، وفلسفت حياة الوحش ، مصورة لها فى صورة إنسانية كاملة .

---

(١) شرح الحماسة ، ط لندن : ص ٢٤٢ .

(٢) خزانة البغدادى ، طبعة المطبعة الأميرية : ص ٦٦ ، والحماسة : ص ١ و٢٢ و٢٤٢ و٢٨٢ ، الشعر والشعراء : ص ١٠٧ ، والأمالى ، ط دار الكتب المصرية : جـ ١ ص ٣٨ وجـ ٢ ص ١٣٨ و٢٧٧ ، ومجموع أشعار العرب ، ط برلين سنة ٩٠٢ : جـ ١ ص ٣٥ .

(٣) رواها الأصمعى وأبو حنيفة الدينورى وابن قتيبة لتأبط شرًّا ، وخالفهم السكرى فقال إنها لامرئ القيس ، وأكثر الأئمة على أنها لتأبط شراً ، ويرى المحدثون أنها أشبه بشعر الصعاليك .

الفصل الرابع

المقومات الفنية فى هذا الدور

وبعد ، فما هى المقومات الفنية لشعر الطبيعة فى هذا الدور؟

لقد أشرنا إلى بعضها مفرقة ، ويحسن أن نجملها مجتمعة .

هذا الشعر بسيط فى أسلوبه ، عار من البهرج اللفظى ، يقصد إلى سبيله مباشرة ، فى غير زينة ولا زخرف . وإذا كانت فيه غرابة فليس منشؤها التعقيد وإنما غرابة قاموسهم اللغوى بالقياس إلى قاموسنا ، وبعدنا عن مألوف الحياة العربية .

وهذه البساطة طبيعية فى حياتهم الساذجة التى لم تعقدها الحضارة ، ولم تفسدها الصناعة ؛ فالمجتمع كلما كان أقرب إلى الفطرة ، كانت مجارى حياته سهلة ومسالكها مستقيمة لا عوج فيها . فشعرهم بسيط بساطة الصحراء المحيطة بهم ، والخيام التى يأوون إليها ، والثياب التى يلبسونها .

ويتصل بالبساطة الإيجاز ، وإن كان لا يلزمها ، إذ قد يكون القول بسيطاً غير موجز . لكن طبيعة الحياة البدوية حتمت عليهم الإيجاز وجعلته جماع بلاغتهم .

وقد يرى البعض أن ما يظهر فى الشعر العربى من كثرة الانتقالات يتعارض مع الإيجاز ، فالاستطراد نقيضه . لكن منشأ هذا ما يظنون من أن الشاعر العربى يقصد إلى موضوع معين ، ثم يضل عنه إلى غيره . أما الحقيقة ، كما يصورها جملة الشعر ، فهى أن هذا الشاعر يمثل الصحراء بأعلامها الكبرى ، متنقلاً فى الوصف تنقله براحلته السريعة المطاوعة . وإذاً فليس هناك استطراد وإنما عرض لصور البادية المتنوعة .

ولا تعنى البساطة التجرد من الفن ؛ فالفن منه البسيط ، ومنه المركب ، وقد يتجلى فيها الفن أروع مما يتجلى فى التعقيد . وقد رأينا أمثلة للفن فى شعرهم ، وكيف قصدوا إلى المعانى الكبيرة فصاغوها صوغاً دقيقاً محكماً .

والنقاد القدماء قد نسبوا إلى امرئ القيس الأولية فى ألوان البيان والبديع ، وأخرجوا من

شعره أمثلة للاستعارة والتشبيه والجناس والطباق والمبالغة والالتفات وغيرها ، وأعجبوا بفنه فى هذه الألوان أيمّا إعجاب ، واعتبروه المثل المحتذى (١) .

لكنا لا نشك فى أن امرأ القيس كان يصدر فى هذه الألوان عن شعوره وينطلق فيها على سجيته ، وأنه لم يكن يقصد إليها قصداً ذاتياً . والفرق بينه وبين غيره ممن اتبعوه أن هؤلاء يتخذون هذه الألوان غاية ، وهو يتخذها وسيلة بيانية . هم يعمدون إليها مقلدين ، وهو يصدر فيها عن طبعه المبين ؛ هذا الطبع الذى تؤدى فيه السليقة للبيان حقه ، بما تم لها من وسائله ، فى غير تعقيد ولا تقنين .

ويساعد على التفوق فى شعر الطبيعة المرح والصبر . والمرح ، لا جرم ، متوفر فى الطبيعة العربية ؛ يستيقظ الشاعر مبكراً ليمتع البصر بجمال الصحراء ، وليصطاد وحشها ، ولا يمل التطواف فيها ، والتغنى بحيوانها ومناظرها . وقد تطغى الآلام والأحزان عليه ، فإن لم يستطع اقتلاعها من جذورها ، فسرعان ما يتخلص منها إلى متاع الحياة الصحراوية الذى استولى على حسه وفكره .

أما الصبر فلم يظفر به ، ذلك بأن الحياة من حوله سريعة عجلى ؛ يطارد الوحش طلباً للقوت ، ويطارده الوحش إن أمسى عليه الوقت ، ويجوب أنحاء البادية براحلته النجيبة . وقد حرمه هذا الإنتاجَ الأدبى المستقر الذى يستقصى النواحى المتنوعة ، ويجليها تجلية تامة الملامح ، كاملة القسمات ، كما صنع اليونان فى قصصهم وفى تمثيلياتهم . ومن هنا كان تأمل الشاعر العربى سريعاً ، لا يلبث أن يقف بجانب طلل يبثه آلامه ، حتى يحث راحلته ناجياً من الهم والبكاء ! .

والشعر فى هذا الدور صادق التعبير عن الشاعر وإحساسه ، يصف الحاضر المشاهد فى غير مغالاة ولا إسراف . وخياله محدود لا يبلغ درجة التخيل وإبداع مخلوقات غريبة . يحاكى الطبيعة فى دقة ، ويمثل ما امتثلته نفسه فى غير مغالاة ولا إغراب .

لكن الشاعر ، على هذا الصدق ، دائم الجيشان النفسى ، شديد الشعور سريع التأثر ، تبلغ به الحماسة أبعد الغايات ، وتثيره أقل الصعاب ، وتستفزه أتفه الأحداث ، ولا يقف محايداً

---

(١) البديع لابن المعتز ، ط لندن ، نشر «كراتشكوفسكى» سنة ١٩٣٥ : ص ٧و٢٧ و٦٨ – ٦٩ ، قراضة الذهب لابن رشيق القيروانى ، طبعة مصر سنة ١٩٢٦ : ص ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، وغيرهما من كتب البيان والنقد والبلاغة .

أمام أمر من الأمور .

هو ذاتى يمثل نفسه بآلامها وأحزانها وخواطرها ، لا يجوز عالمه الصغير وما حواه من المباهج والآلام إلى العالم الكبير بأفكاره العامة ؛ وإنما يمثل ألوان حياته المختلفة .

وهو مسرف فى هذا إلى حد كبير ؛ يشغل الناس بخصوصياته ، ويكرههم على العناية بما يعنيه . ولهذا كثرت فى شعره الشكوى ، وإن خفف من ثقلها طبيعة الفناء فى البيئة التى فطر عليها ، وحب الاستمتاع بها . لكن هذا الفناء ذاته قد قوى معنى الذاتية فى شعره . فحركات الإبل والخيل ، بل الوحش ، إنسانية ؛ يفسرها كما يفسر حياة نفسه وأحوالها .

وهذه الذاتية المسرفة قد تكون من العوامل التى قعدت بالشعر الجاهلى عن الخلود ، وبقاء استذكاره للمتاع النفسى فى العصور المختلفة . ذلك بأنه يمثل حياة خاصة فى زمن خاص . وهذا التمثيل ، وإن كان بارعاً ، يؤدى للفن حقه ، فإنه لا يؤدى لمن ينشد المثل العليا الإنسانية .

لكن مطالعة الحياة البشرية بأفكارها ونزعاتها وأحاسيسها ، فى أى عصر ومكان ، عظيمة الفائدة . وبخاصة إذا كانت هذه الحياة مصورة فى إتقان ومجلوة فى إبداع .